مع صعاليك العرب

للأستاذ على النجدى ناصف

يفسر اللغويون التصعلك بالفقر ، ويستدلون له بقول حاتم :

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى فكلا سقاناه بكأسيهما الدهر

فما زادنا بأوا على ذى قرابة غنانا، ولا أزرى بأحسابنا الفقر

وهو استدلال صحيح ، يضرب فى كلا البيتين بعرق ، فعرق فى المطابقة بين التصعلك والغنى فى البيت الأول : لأن المطابقة بينهما على هذه الصورة تعنى أنهما ضدان . وعرق فى وضع كلمة الفقر بمكان كلمة التصعلك فى البيت الثانى ، وإن كان السّنق ليطلب هذه أشد مما يطلب تلك ، وإذا يكون التصعلك والفقر مترادفين .

وأكبر ظنى أن حاتما كان يريد الفقر وحده ، أو التصعلك وحده فى كلا البيتين ، لكن حكم الوزن والقافيـــة حال دون ما يريد ، وأبى إلا أن يأتى بالتصعلك فى البيت الأول ، وبالفقر فى البيت الآخر . وليس مع حكم الوزن والقافية حكم ، ولا مع إرادتهما إرادة .

وإذا كان التصعلك هو الفقر ، فالصعاليك هم الفقراء ، أو بعبارة صاحب اللسان : هم الفقراء لا مال لهم ولا اعتماد ، فالتصعلك أصل الصعاليك ، هو مأخذ اللفظة ومادتها . وفى الحديث الشريف أن الرسول عليه السلام كان يستفتح بصعاليك المهاجرين ، أى يستنصر بفقرائهم[1] .

غير أن كتب الأدب والأخبار لا تطلق اسم الصعاليك على الفقراء

---

(١) أمالى القالى ٢ : ٢٨٦ .

ما كانوا . كما تصنع معاجم اللغة ، وكما يدل عليه حديث الرسول عليه السلام، ولكنها تطلقه على طائفة منهم متميزة ، كانت تتعاطى التلصص والسطو ، وتعتمد عليهما فى ابتغاء الرزق ، وسد حاجات العيش .

وقد يبدو أن معنى الصعاليك فى تفسير المعاجم ، واستعمال الرسول — قاصر عن معناه كما توحى به الرواية والوصف فى كتب الأدب والأخبار وإن كان اللفظ لقديما .

والحق أنا إذا نظرنا إليه ، وقد انفصل من أصله ، واستقل عنه بالأداء والتعبير — رأينا القصور واقعا ، لاشك فيه ولا مراء . وإذا نظرنا إليه وإلى أصله معه لم نر ثمة شيئا من قصور .

فالفقر رأس البؤس والشقاء ، ومصنع البائسين والأشقياء ، يخرج من هؤلاء وهؤلاء أشتاتا متتابعة ، وألواناً متخالفة ، ثم يدفع كلا إلى الطريق التى تلائمه ، وتقتضيها طبيعة مزاجه ، وخصائص شخصه ، وأحوال بيئته .

فهؤلاء أرذال متبطلون ، سلاحهم التهديد والوعيد فى أغلب الأمر ، يخيفون به الأثرياء ، ليؤدوا لهم المال عن يد وهم صاغرون ، ويسمون اليوم (بالبلطجية) . وأولئك سراق متلصصون ، يسطون بالناس ، ويغلبونهم على أموالهم قهرا واقتدارا . ويسمون فى كتب الأدب والأخبار باسم الصعاليك اعتباراً للأصل الذى صاروا بهم إلى ماهم فيه ، ويسمون فى كتب اللغة باسم الذؤبان ، إجراء لهم مجرى ذؤبان الوحش فى الدهاء والخبث . وآخرون عفاة مستجدون ، ينتابون أهل السماحة والبذل ، ابتغاء القرى والمعروف ، ويسمون باسم الهلاك ، وهو اسم يدل على الضياع والإجداب .

قال جميل :

خليلى فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلى ؟
أبيت مع الهلاك ضيفاً لأهلها وأهلى قريب موسعون ذوو فضل

وكانت حياة الصعاليك شقية جاهدة ، تبهظها الحاجة ، وتحف بها المكاره والخطوب . وما ظنك بمن يكسب الرزق من العدوان على الناس ، والاصابة

مما يملكون ، فى أرض لا سطوة فيها لسلطان ولا حكم لقانون ؟

إن الناس ليتسامعون به ، فينذرون دمه ، ويشتدون فى طلبه ، عسى أن يظفروا به فيقتلوه ، ويستريحوا منه . وإنه ليعلم ذلك منهم ، ولكنه لا يقعد عن الخروج إليهم كلما بدا له ، يطلب غفلتهم فى شوق وإصرار ، لا يدرى متى تسنح له فيثب وثبته ؟ ولا يدرى إذا هى سنحت أتحقق فيها فذركه الموت أو واقع به الأسر ، أم مصيب نجحا فهارب إلى جبل يعتصم به ، أو مغارة يستخفى فيها ، أم منطق كالظليم بين الشعاب المخوفة ، والمسالك المجهولة ؟

وقد لا تسنح له الغفلة على ما قدر ، فيطوى ليالى وأياما وحيدا مشرداً ، أو فى رفقة لا يغنى بعضهم عن بعض شيئا فى هذه المضلة المهلكة ، لا يرى فيها غير الجدب والوحشة والعبوس.

نهار واجم محزون ، يطبق عليه الصمت والسكون ، ويثقله الاكتئاب والإطراق إلا خفقة نسيم ، أو ثورة ريح عاصف . وليل نكد مخوف ، ثقيل الوطأة ، صعب المراس ، طويل الذيول تضطرب فيه الهوام ، وتسرب الوحوش ، بعد ما طال عليها الهجوع ، وأمضها الجوع والترقب ، ويتوفز الحس ، ويتنبه الخيال ، وتكثر الوساوس والأوهام ، فإذا عالم مهول ، يموج بالأشباح والأطياف .

ولهذا أكثروا فى شعرهم من وصف الضنك ، وشدة الزمان ، وأفاعيل الحرمان ، وافتخروا بالجلد والجرأة على ركوب الأهوال . قال الشنفرى فى لاميته المشهورة :

إذا الأمعز الصوان لاقى مناسمى ... تطاير منه قادح ومفلل[1]

أديم مطال الجوع حتى أميته ... وأضرب عنه الذكر صفحا فأذهل

وأستف ترب الأرض كى لا يرى له ... علىّ من الطول امرؤ متطول

ولولا اجتناب الذام لم يبق مشرب ... يعاش به إلا لدى ومأكل

(١) الامعز : المكان الصلب ، تكثر فيه الحجارة والحصى . الصوان : الحجارة الشديدة الصلبة . المفلل : المتناثر .

ولكن نفسا حرة لا تقيم بى ... على الضيم إلا ريثما أتحول
وأطوى على الخمص الحوايا كما انطوت ... خيوطة مارى تغار وتفتل (١)
وأغدو على القوت الزهيد كما غدا ... أزل تهاداه التنائف أطحل (٢)
غدا طاويا يعارض الريح هافياً ... يخوت بأذناب الشعاب ويعسل (٣)
فلما لواه القوت من حيث أمه ... دعا فأجابته نظائر نحل
مهلهلة شيب الوجوه كأنها ... قداح بكفى ياسر تتقلقل
أو الخشرم المبعوث حثحث دبره ... محايض رداهن سام معسل (٤)
مهرتة فوه كأن شدوقها ... شقوق العصى كالحات وبسل (٥)
فضج وضجت بالبراح كأنها ... وإياه نوح فوق علياء ثكل
وأغضى وأغضت واتسى واتسست به ... أرامل عزاها وعزته أرمل
شكا وشكت ثم ارعوى بعد وارعوت ... وللصبر إن لم ينفع الشكو أجمل
وفاء وفاءت بادرات وكلها ... على نكظ مما يكاتم مجمل (٦)

وقال تأبط شرا يأسى لطيف حبيبته ، أن سرى إليه لا يبالى جهد الطريق وأهوال السرى ، ولا يخشى أذى الحيات تدب لديه هنا وهناك :

ياعيد مالك من شوق وإيراق ... ومر طيف على الأهوال طراق (٧)
يسرى على الأين والحيات محتفيا ... نفسى فداؤك من سار على ساق

(١) الحوايا : الامعاء ، جمع حوية . الخيوطة : الخيوط . المارى : الحاذق الصنيع له خطوط مرسلة . تغار : يشد فتلها .
(٢) الازل : السريع ، أو الخفيف الوركين . الاطحل : الذى لونه الطحلة ، وهى اللون بين الغبرة والسواد ، ببياض قليل .
(٣) يخوت : خاتل البازى : انقض على الصيد . يعسل : من عسل الذئب أو الفرس ، أى اضطرب فى عدوه وهز رأسه .
(٤) الخشرم : جماعة النحل ، والواحدة خشرمة . حثحث : حرك ، أو حض . الدبر : جماعة النحل ، والواحدة دبرة . المحايض : الميدان يطرد بها النحل ؛ جمع محيض كمبيع . رادهن : أنزلهن .
(٥) مهرتة : واسعة الاشداق
(٦) النكظ : الجهد
(٧) العيد : ما يعتاد الانسان من هم ، أو مرض ، أو حزن ونحوه .

وأكثر الصعاليك فى شعرهم أيضا من ذكر الغنى والفقر ، يمتدحون الغنى ويحضون على طلبه ، ويذمون الفقر ، وينهون عن الاستسلام له والرضا بعيشه وربما مضوا فى ذلك فاستجبوا الموت عليه . ونحسبنا فى هذا المقام قول عروة بن الورد :

قالت تماضر إذ رأت مالى خوى ... وجفا الأقارب فالفؤاد قريح :
مالى رأيتك فى الندى منكساً ... وصبا كأنك فى الندى نطيح [1]
خاطر بنفسك كى تصيب غنيمة ... إن القعود مع العيال قبيح
المال فيه مهابة وتجلة ... والفقر فيه مذلة وفضوح

وقوله :

إذا المرء لم يبعث سواما ولم يرح ... عليه ولم تعطف عليه أقاربه [2]
فللموت خير للغنى من حياته ... فقيراً ومن مولى تدب عقاربه
وسائلة أين الرحيل وسائل ... ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه ؟
مذاهبه أن الفجاج عريضة ... إذا ضن عنه بالفعال أقاربه [3]

وقد سبق جمهور القدماء من أئمة الأدب ورواة الشعر إلى إدراك هذه الحقائق واصطناعها فى النقد والتمييز ، فرجحوا أن تكون هذه الأبيات لتأبط شراً .

وقربة أقوام جعلت عصامها ... على كاهل منى ذلول مرحل [4]
وواد كجوف العير قفر قطعته ... به الذئب يعوى كالخليع المعيل [5]

---

(١) الوصب : المرض
(٢) السوام : المال الراعى
(٣) الفعال : الكرم ؛ والفعل الحسن
(٤) العصام : حبل يشد فتحمل القربة به
(٥) العير : الحمار ، وغلب على الوحشى . وشبه الوادى القفر بجوفه بالقلة جدواها . الخليع : الذى تبرأ منه أهله خيفا . وكان أهل الجاهلية إذا قال قائل منهم : هذا ابنى قد خلعته لم يؤخذ بعد بجريرته المعيل : الكثير العيال .

فقلت له لما عوى : إن شأننا قليل الغنى إن كنت لما تمول
كلانا إذا ما نال شيئاً أفاته ومن يحترث حرثى وحرثك يهزل

ونفوا أن تكون لامرىء القيس ، بما فيها من علائم النصب والحرمان ، ودلائل المخاطرة والجرأة على ركوب الأهوال .

ولم تكن حياة البادية فى جملتها أطيب من حياة الصعاليك مذاقا ، أو ألين جانبا . فما بال الصعاليك وحدهم قد ضاقوا بها وتمردوا عليها، وجهدوا فى تغييرها لايخشون موتا ، ولايبالون مكروها ؟ مرجع ذلك إلى أنهم لم يكونوا فقراء فحسب ، ولكن أولى حمية وعزم وجلد ، وأولى قوة وبأس شديد أيضا . وكانت لهم مع ذلك مواهب بارعة ومزايا نادرة . فطبيعى أن يكون رأيهم فى الحياة وفهمهم لها على خلاف مايرى الآخرون ويفهمون

رأوها وسيلة يتوسل بها ، لاغاية تطلب لنفسها ، ويوقف عليها ، وسيلة لبر الأهل ، وقرى الضيف وحماية الجار ، وإغاثة اللهفان . وفهموها عزة وإباء ، وكرامة وجلادا ، فما ضعفوا ، ولااستكانوا ، وما لانت لهم قناة ، ولا غلبهم يأس . قال عروة بن الورد يذكر نهجه فى الحياة ، ويصف أسلوبه فى المعاملة والسلوك :

فلا أترك الاخوان ماعشت للردى كما أنه لايترك الماء شاربه
ولايستضام الدهر جارى ولاأرى كمن بات تسرى للصديق عقاربه
وإن جارتى ألوت رياح ببيتها تغافلت حتى يستر البيت جانبه[1]

وقال الشنفرى فيما يشبه ذلك :

وأعدم أحيانا وأغنى وإنما ينال الغنى ذو البعدة المتبذل[2]
فلا جزع لخلة متكشف ولا مرح تحت الغنى أتخيل[3]
ولاتزدهى الأجهال حلمى ولاأرى سئولا بأعقاب الاحاديث أنمل[4]

(١) ألوت ببيتها . ذهبت به ، وألفته .
(٢) ذوا البعدة . ذو الرأى والحزم . المتبذل . من يعمل عمل نفسه .
(٣) المتكشف . المفتضح . أتخيل . أتكبر .
(٤) تزدهى . تستخف . نمل كنصر وعلم وأنمل . نم

مذهب فى الحياة هدوا إليه ، فآمنوا به واتبعوه ، ودعوا اليه ، إذ كانوا يمتدحون أصحابه ، وينالون بالذم والتشهير كل من يحيد عنه ، أو يتخلف فيه.

قال عروة يصف الصعلوك الحميد ويثنى عليه ، ويذكر الصعلوك الذميم وينال منه :

لحى الله صعلوكا إذا جن ليله ... مصافى المشاش آلفا كل مجزر[1]
يعد الغنى من نفسه كل ليلة ... أصاب قراها من صديق ميسر
ينام عشاء ثم يصبح ناعسا ... يحت الحصى عن جنبه المتعفر[2]
يعين نساء الحى ما يستعنه ... ويمسى طليحا كالبعير المحسر[3]
ولكن صعلوكا صفيحة وجهه ... كضوء شهاب القابس المتنور[4]
مطلا على أعدائه يزجرونه ... بساحتهم زجر المنيح المشهر[5]
إذا بعدوا لا يأمنون اقترابه ... تشوف أهل الغائب المتنظر[6]
فذلك إن يلق المنية يلقها ... حميدا وإن يستغن يوما فأجدر

وما كان التصعلك على ما يعرضه عروة فى صورته المثالية ليتهيأ لكل طامح اليه ، متعلق القلب به . هيهات ، فلا بد لصاحبه من صفات معينة فى جسمه ونفسه وذهنه ، بعضها عن طبيعة واستعداد ، وبعضها عن رياضة واعتياد .

لابد أن يكون ندبا أيدا خفيفا ، لا يثقله امتلاء ، ولا يطيء به استرخاء ، قانعا يقظا ، يكفيه من الطعام كسرة ، ومن النوم غفوة ، سريع العدو ،

---

(١) المصافى . الصادق الإخاء . المشاش . الحدم .
(٢) يحت . يزيل ، ويسقط .
(٣) الطليح . التعب المعى . المحسر . المؤذى .
(٤) صفيحة الوجه . بشرة جلده . المتنور . طالب النار من بعيد .
(٥) المنيح . قدح من قداح الميسر التى لا حظوظ لها ، وإنما تكثر بها القداح ، فهى تجال أبدا وتزجر المشهر . المظهر فى شئمه .
(٦) المتنظر . المرتقب رجوعه . وفى حماسة البحترى : ١٢٧ ، وأمالى القالى : ١٨٢ من الذيل والنوادر مقطعتان فى معنى مقطعة عروة التى نرويها هنا ، فارجع اليها إن شئت

خبيرا بفجاج الصحراء ، عارفا بمنازل القبائل ومواقع المياه ، حتى لا يهلك ضلالا ، أو ثأرا ، أو ظلماً .

ويحفظ لنا أدب الصعاليك صورا لفريق منهم ، نبدأ من بينها بهذه الصورة الشعرية ، يعرضها أبو كبير الهذلى لصعلوك من أعجب الصعاليك ، وأبعدهم شهرة ، وهو تأبط شرا ، ثم نتبعها صورا أخرى قصصية بعضها له ، وبعضها لغيره .

ويروون أن سبب اهتمام أبى كبير به ووصفه اياه سرحة سرحاها معا للسطو والاستلاب ، فقد كان أبو كبير زوجا لأمه ، ولم يكن الفتى بهذا راضيا ، وأدرك أبو كبير أن الفتى ساخط عليه ، متربص به ، فأفضى بالأمر الى أمه ، وذكر لها أنه لا يأمنه على نفسه ، وهو لهذا سيهجرها ، ماله من ذلك بد .

فيقال انها أشارت عليه أن يحتال له ، ويقتله ، فدعاه أبو كبير للغزو ، ولبى الفتى غير محجم ولا متردد ، فخرجا ليلا . ولما كان مساء الغد أبصرا نارا ، وكان أبو كبير يعرف أنها لبعض أعداء تأبط شرا ، فوجهه اليها ، فاذا عليها رجلان من ألص العرب ، فوثبا اليه يريدان قتله . فعاجل الفتى أدناهما منه فقتله ، وعطف على الآخر فقتله كذلك . وحمل طعامهما الى أبى كبير ، فأخذه الفزع والعجب معا ، وما زال بالفتى يسأله : مافعل حتى أخبره . فلما رجعا قطع أبو كبير صلته بأمه ، وأنشأ كلمته هذه يقول فيها :

ولقد سريت على الظلام بمغشم جلد من الفتيان غير مثقل (١)
ممن حملن به وهن عواقد حبك النطاق فشب غير مهبل (٢)

---

(١) المغشم : الشجاع الذى يركب رأسه فلا ينثنيه شيء عما يريد

(٢) الحبك جمع حبائك ، وهو مايشد به الوسط . النطاق : شقة تلبسها المرأة ، وتشد وسطها ، فترسل الأعلى على الاسفل ، والاسفل ينجر على الارض ، ليس لها حجزة ، وهى موضع التكة من السروال ، وليس لها نيفق ، وهو الوضع المنثلم من السروال . المهبل : المدعو عليه بالهبل ، وهو أن تثكله أمه

ومبرإ من كل غبر حيضة وإفساد مرضعة وداء مغيل (١)
حملت به فى ليلة مزمودة كرها وعقد نطاقها لم يحلل (٢)
فأتت به حوش الفؤاد مبطنا سهدا اذا مانام ليل الهوجل (٣)
فاذا نبذت له الحصاة رأيته ينز ولوقعتها طمور الأخيل (٤)
واذا يهب من المنام رأيته كرتوب كعب الساق ليس بزمل (٥)
ما إن يمس الأرض إلا منكب منه وحرف الساق طى المحمل
وإذا رميت به الفجاج رأيته يهوى مخارمها هوى الأجدل (٦)
وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل
صعب الكريهة لا يرام جنابه ماضى العزيمة كالحسام المقصل
يحمى الصحاب إذا تكون عظيمة وإذا هم نزلوا فأوى العيل (٧)

ويذكرون أن تأبط شراً كان فى أكثر الأمر يخرج وحده للغارة والسطو وكان إذا لقى الرجل فقال له : أنا تأبط شراً انخلع قلبه ، وتبددت نفسه ، وألقى اليه ما يريد ، وقنع بالفرار منها (٨)

(١) مبرأ ، معطوف على مقدم . غبر الحيضة : بقاياها . المغيل : المرأة ترضع ولدها وهى حامل .

(٢) المزمودة المذءورة . يريد أنها حملته غير راغبة فى الفراش ولا مستعدة له . وكان الرجل منهم يغضب امرأته ، ويعجلها إلى الفراش ، لتغلب خصائصه على خصائصها ، ويخرج الولد نازعا اليه فيما يزعمون .

(٣) حوش الفؤاد : حديد المبطن . الضامر البطن . السهد : القليل النوم . الهوجل البطىء الثقيل .

(٤) الطمور : الوثب إلى أسفل أو إلى أعلى . الاخيل : طائر مشئوم ، أو الشاهين وهو طائر طويل الجناحين من جنس الصقر ، أو الصرد : وهو طائر ضخم الرأس ، أبيض البطن ، أخضر الظهر ، يصطاد صغار الطير .

(٥) الرتوب : الانتصاب ، أو الثبات لاحركة معه . الزمل : الضعيف الجبان .

(٦) المخارم جمع مخرم ، وهو منقطع أنف الجبل ، ونصبها على نزع الخافض . الاجدل : الصقر

(٧) العيل : الفقراء ، جمع عائل

(٨) الاغانى : ٨ : ٢١٠ طبعة الساسى

وقد يبدو هذا غير عجيب ، فمثله أو قريب منه يعزى لعهدنا إلى بعض متلصصة الريف . والحق أن الفرق بين الأمرين كالفرق بين البيتين ، وإنه لعظيم .

لقد كانت العرب أمة بادية ، لا حكومة لها ولا قانون ، وكان معول الناس على أنفسهم فى الحماية والقصاص ورد الحقوق ، ولكل بحكم هذه الضرورة القاهرة عدة من سلاح ، وعلم بالمناقفة ، ورياضة على الجلاد والاحتمال . ولا كذلك أهل الريف فى كل أولئك .

ومرد الأمر فى هيبة من يهابون من المتلصصة والمجرمين الى الفرق بينهم وبينه فى الاهبة والطبع . هم عزل أو كالعزل ، وهو مسلح أو تام السلاح . وهم متحرجون ذوو أناة وحكمة ، يطيعون السلطان ويحترمون القانون،وهو مستهتر أحمق ، لا يطيع إلا نفسه ، ولا يتبع إلا هواه .

ولو أنهم ذكروا أنفسهم ، وأجمعوا أمرهم ، وتكبوا جانبا عن الاثرة والتخاذل لم تبق فيهم من ذلك باقية أو تكاد . ومهما يكن من شىء فقد كان تأبط شراً على ما رأيت فيما يقول الرواة .

وهم يذكرون كذلك أن بنى لحيان ظفروا به وهو يجنى عسلا فى بعض الجبال ، فأخذوا عليه الطريق وطلبوا اليه أن يسلم نفسه أو يقتلوه ، فلم يجبهم إلى ما طلبوا ، وأخذ العسل فصبه على الصخر ، وأسلم جسمه لمسيله عليه ، فانزلق يهوى إلى الارض ، ولكن من جانب غير الذى رصدوا فيه ، ثم انطلق كالسهم ، فكان بينه وبينهم مسيرة ثلاثة أيام [1] . وقال فى ذلك :

إذا المرء لم يحتل وقدجد جده أضاع وقاسى أمره وهو مدبر
ولكن أخو الحزم الذى ليس نازلا به الخطب إلاوهو للقصد مبصر
فذاك قريع الدهر ما عاش حول اذا سد منه منخر جاش منخر [2]

(١) الحماسة لابى تمام : ١ ٢٦٠

(٢) جاش منخر . تحرك فيه النفس وتردد . يريد انه كلما ضيق الخناق عليه فى وجه، وجد له فى آخر مفقدا

أقول للحيان وقد صفرت لهم ... وطابى ويومى ضيق الجحر معور [١]
هما خطتا إما إسـار ومنة ... وإما دم والقتل بالحر أجدر [٢]
وأخرى أصادى النفس عنها وإنها ... لمورد حزم إن فعلت ومصدر [٣]
فرشت لها صدرى فزل عن الصفا ... به جؤجؤ عبل ومتن مخصر [٤]
فخالط سهل الارض لم يكدح الصفا ... به كدحة والموت خزيان ينظر [٥]
فأبت إلى فهم وما كدت آئبا ... وكم مثلها فارقتها وهى تصفر [٦]

ويضربون المثل بالشنفرى فى سرعة العدو ، فيقولون أسرع من الشنفرى وقد ذرع خطوه يوم مقتله ، فكان ذرع الوثبة الأولى إحدى وعشرين خطوة ، والثانية سبع عشرة ، والثالثة خمس عشرة . وكان [٧] . تأبط شراً مثله فى ذلك أو يكاد . فكان إذا جاع فاستسمن ظبيا يعدو وراءه فيدركه ، ويتخذ منه طعاماً [٨] .

وكان السليك بين السلكة أعرف الناس بالصحراء وأهداهم فى مسالكها فكان فى الشتاء يخزن الماء فى بيض النعام ويدفنه فى الرمل ، وإذا جاء الصيف وبدأ الاغارة واحتاج إلى الماء - يجىء فيقف على البيضة ، ينبش عنها ، فيستخرجها ، ويشرب مافيها .

---

(١) الوطاب جمع وطب ، وهو سقاء اللبن . ويكنون بصفر الوطاب عن الموت أو القتل فكأنما يريد أنه كاد يقع فى أيدى أعدائه ، معور : متوقع ثغرة من أفواد الفارس ، أى بدا فيه موضع خلل للطعن .
(٢) خطتا ، حذف النون الاضافة ، وفصل بين المضاف والمضاف إليه بإما .
(٣) أصادى : أعارض ، أو أداجى .
(٤) جؤجؤ عبل : صدر ضخم
(٥) يكدح : يخدش
(٦) فهم : قبيلة الشاعر ، والضمير فى مثلها للحيان ، وكنى بالصفير عن الاخف .
(٧) خزانة الادب : ٣ : ٢١٤ ، ٣١٧
(٨) خزانة الأدب : ١ : ١٢٣ .

وأغار الشنفرى وتأبط شراً وعمرو بن براق على بجيلة مرة ، فاذا القوم قد أعدوا لهم رصدا على الماء ، ولم يكن لهم منه بد ، فمضى الشنفرى فشرب ولم يعرض له القوم بسوء ، وفعل ابن براق مثله ، ولم يعرض له القوم بسوء أيضاً . فأدرك تأبط شراً أنهم يريدونه ، ولا يريدون أحداً من صاحبيه فقال للشنفرى : سأرد الماء ، وإذا رأيت القوم يأسرونى فانطلق كأنك تطلب الهرب ، لا يعنيك من أمرى شيء ، ثم ائت هذا الجبل فكن فى رأسه وإذا سمعتنى أقول : خذوا ، خذوا ، فتعال فأطلقنى . وقال لابن براق : سآمرك أن تستأسر لهم ، فأطمعهم فيك ، واحذر أن تمكنهم منك ، كن بحيث لا يصلون إليك ، ولا يستيئسون منك .

ومضى تأبط شرا إلى الحوض ، فلما كرع فى الماء شد الرصد عليه ، فأخذوه ، وكتفوه بوتر ، وفعل صاحباه ما أمرهما به ، فقال لآسريه : هل لكم أن تياسرونا فى الفداء ، ويستأسر لكم ابن براق ؟ فقالوا : نعم . فقال : يابن براق . إن الشنفرى قد طار ، فهو الآن يصطلى نار بنى فلان . وقد علمت الذى بيننا وبين أهلك . فهل لك أن تستأسر ، وياسرونا فى الفداء ؟ قال : حتى أروز نفسى شوطا أو شوطين ، وجعل يعدو فى قبل الجبل ثم يرجع فلما رأوا أنه قد أعيا طمعوا فيه ، ونادى تأبط شرا : خذوا ، خذوا . فغادروه وانطلقوا وراء ابن براق ، فجعل يدنو منهم مرة ، ويبعد أخرى ، حتى شغلوا به ، وأسرع الشنفرى إلى تأبط شرا ، فقطع وثاقه فلما رآه ابن براق كر إليه . فقال تأبط شرا : أعجبكم يابجيلة عدو ابن براق ؟ أما والله لأعدون لكم عدوا أنسيكموه ، ثم انطلقوا لشأنهم[1] وكأنى بهم يضحكون ويستسخرون ، فيطيلون الضحك والاستسخار ، أن مكروا بعدوهم ، فأفلح مكرهم ، وأدركوا به مايبتغون وكان عروة بن الورد زعيم الصعاليك المرجى ، وسيدهم المطاع ، يفزعون إليه إذا اشتدت الحال ، وأجدب العيال ، فيلقون منه العطف وحسن الرعاية والتدبير . كان يميز الأقوياء القادرين عن العجزة

(١) خزانة الادب ـ ٣ ٣١٤ ـ

والضعفاء ، فيقود أولئك للغارة والسطو ، ويتخذ لهؤلاء الكنف ، وهى أسراب يحفرها ، ويقيم الحظائر عليها ، فيقيمون فيها حتى يرجع بالغنائم والأسلاب ، فيفرقها فيهم ، لكل منهم نصيب معلوم .

ولهذا سموه أباهم ، فقالوا : أبو الصعاليك ، وأضافوه اليهم فقالوا : عروة الصعاليك . ومن قوله يصف حال أهل الكنيف فى بعض المنازل ، ويذكر كيف ندبهم للخروج معه وكيف رغبهم فيه :

قلت لقوم فى الكنيف تروحوا ... عشية بتنا عندما وان رزح[1]
تنالوا الغنى أو تبلغوا بنفوسكم ... إلى مستراح من حمام مبرح
ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا ... من المال يطرح نفسه كل مطرح
لعلكم أن تصلحوا بعد ماأرى ... نبات العضاه الثائب المتروح[2]
لتبلغ عذرا أو تصيب رغيبة ... ومبلغ نفس عذرها مثل منجح
ينوءون بالأيدى وأفضل زادهم ... بقيـــة لحم من جزور مملح

وقد وصلت أنباء عروة إلى مسامع الخلفاء ، فارتاحوا لها ، وأعجبوا بها ، وأكبروا صاحبها ، إكبارهم لذوى المكانة الملحوظة والذكر الحميد .

قال معاوية : لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم . وقال عبد الملك مايسرنى أن أحدا من العرب ولدنى بمن لم يلدنى إلا عروة بن الورد لقوله :

إنى امرؤ عافى إنائى شركة ... وأنت امرؤ عافى إنائك واحد
أتهزأ منى أن سمنت وأن ترى ... بجسمى مس الحق والحق جاهد
أفرق جسمى فى جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد

وقال أيضا : من زعم أن حاتما أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد . وكان المنصور يسأل عن أخباره ويعرف منها مالايعرف إلا القليل من الرواة .[3]

على الجبرى ناصف

(١) تروحوا سيروا فى الرواح . ما وان . واد من منازل بنى عبس . رزح . لا يستطيعون النهوض هزالا (٢) المتروح . المكتسى ورقا ، يرجو أن يصلحوا كما صلحت هذه العضاه وقد نابت الى الايراق بعد اليبس (٣) الاغانى ٣ : ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٣